العرب
الخميس 2019/12/12
السنة 42 العدد 11556

الغرب يفرض شروط الغيرية ومواصفات الاختلاف

حسن النية والتسامح والفضول لا تضمن الانفتاح على الغيرية

الغيرية في خطر (لوحة للفنانة علا الأيوبي)

كيف ننظر إلى الغيرية اليوم في ظل ليبرالية شرسة تدجّن اقتصادات شعوب العالم الثالث، وعولمة تكاد تفقد الشعوب خصوصياتها الثقافية؟ وهل تتحدد الغيرية بحق الاختلاف وحده؟ وهل يبلغ الاختلاف مبلغ الغيرية؟ هنا رأي على هامش ندوة "الغيرية والوجه الجديد للآخر" التي أقيمت مؤخرا في تونس.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

شغلت مسألة الغيرية الفلاسفة منذ القدم، ولكن المصطلح تبلور مع إيمانويل ليفيناس في سلسلة من المقالات صاغها ما بين عامي 1967 و1989، وبحث فيها العلاقة مع الآخر، مبيّنا أن الإنسان في سعيه للخروج من عزلته يمكن أن يتبع مسلكين، إما المعرفة وإما التآنس أي الاجتماع.

ويرى ليفيناس أن المعرفة وحدها لا تكفي لمقابلة الآخر على حقيقته، ولا يمكن بحال أن تعوّض التآنس، الذي يتصل اتصالا مباشرا بالغيرية، وتعني لغةً كَوْنَ كُلٍّ من الشيئين خلاف الآخر، وتعني في العلوم الإنسانية الاعتراف بالآخر في اختلافه إثنيا ودينيا وثقافيا.

الأنا والآخر

يتفق المفكرون على أن الآخر ليس أنا، فهو من لا أكون، وفي الوقت نفسه له ذات مثلي، بوصفه ينتمي إلى الإنسانية، فهو شبيه ومختلف، قريب وبعيد، هو الذي لا يمكن أن أستغني عنه، وهو الذي لا يمكن أن أحتمله أحيانا. وأنا لحريتين، حرية الأنا وحرية الآخر، أن تتفاهما دون أن تتصادما في مواجهة مستمرة؟ فالتفاهم مع الآخر ليس بالأمر الهيّن، لأن التوافق يقتضي الحدّ من حرية الطرفين، وعرقلة الرغبة. فالآخر إذن هو حدّ للذات، ولكن الأنا هي حدّ للآخر أيضا.

ومن ثَمّ يدعو ليفيناس إلى التآنس داخل المجتمع، لأن المجتمع يفرض حالة ثقافة يحقق داخلها الإنسان قدراته البدنية والذهنية، ولو أنه يظل رهين دافعين يتجاذبانه: الأول هو ضرورة الاجتماع بأناس آخرين، أي المساهمة في حياة مشتركة. والثاني هو رغبة البحث عن إرضاء مصلحة خاصة، أي بالعيش بمعزل عن الناس. وبما أنه مدفوع دائما بمصلحته الشخصية، فإنه سوف يقف في وجه أناس آخرين مدفوعين هم أيضا بمصالحهم الشخصية، ما يخلق تنافسا وتسابقا بين البشر، ينتج عنه صراع يخرج الفرد من خموله وكسله وينمي مواهبه وقدراته، فتنتقل أفكاره من استعداده الفظ إلى تبصره الأخلاقي، أي أن عدم قابليته الطبيعية للاجتماع تؤدي إلى قابلية اجتماع ثقافية.

وفي رأي هيغل إن أول لحظة لاعتراف الواحد بالآخر هي لحظة صراع بين وعيين يفرضان نفسيهما في البداية بنفي متبادل: كل واحد يريد أن يعترف به الآخر كي يخرج من ذاتيته، أي أن كل وعي يريد اعترافا من الآخر حتى يكون لديه دليل موضوعي عن وجوده. وبذلك يغدو الآخر، كتجسّد لحرية في العالم، جديرا بالاحترام، لأن العالم من دون الآخر سوف ينحصر في وجهة نظر وحيدة هي نظرتنا، وتمثّل واحد هو الذي نقوم به.

إيمانويل ليفيناس

الصراع مع الآخر يخرج الفرد من خموله وكسله وينمي مواهبه وقدراته

الاختلاف ليس الغيرية

إن استعداداتنا السيكولوجية الطبيعية تجعلنا نجد صعوبة في قبول من يخالفنا، من هو غريب عنا ثقافيا، لأننا نبقى أمام المجهول بلا هادٍ ولا نقطة ارتكاز ممكنة للإجابة. فيكون أول ردّ فعل رفض من لم نتعود عليه، رغم أن الجنس البشري واحد، وما الحضارات سوى تعبيرات خاصة لنوع واحد، وإنسانية واحدة. أي أن عدم اعترافنا بإنسانية الإنسان الذي يواجهنا، ووصفه بالهمجي، معناه أن نتصرف تصرّفا نأباه عليه.

كل هذا جميل ومنطقي في المطلق، ولكن الواقع اليوم عكس ذلك، فاستشراء الليبرالية الشرسة في وجهها الجديد، واجتياح العولمة الكونَ بشكل رهيب ولّدا أوضاعا متقلبة، وحدودا رمزية في نظر بعض المفكرين وفعلية في نظر السواد الأعظم، ساهمت في تعميق الاختلاف بين الـ"نحن" والآخر، لأن الاختلاف ليس قيمة في حدّ ذاته، إذ ثمة اختلافات غير مقبولة، ولاسيما تلك التي من غايتها أو من أثرها أن تنكر على الآخر حقه في الاختلاف. ومن نافلة القول إن حسن النية والتسامح والفضول لا تضمن وحدها الانفتاح على الغيرية.

فأنّى للآخرين أن يكونوا كالـ"نحن"، والحال أن هؤلاء ليسوا كذلك إلا لأنهم يضطهدون الآخرين؟ وهذه نقطة غالبا ما يُغفل عن ذكرها، وتُغفل معها أفعال المهيمنين على العالم لتقدَّم كمعيار كوني ينبغي على البقية السير على هَديه.

وبما أن قدرات الـ"نحن" تقوم أساسا على اضطهاد الآخرين، فذلك يعني أن هؤلاء لن يستطيعوا أبدا بلوغ مقام الـ"نحن"، واضعي المعايير والقيم، ولا التموضع داخل ما يقدَّم كمعيار كوني يوهمون الآخرين بأنه في متناول الجميع، فيما هم يعملون على توفير أجوبة لا تنفك تعجّل آنيتها، وإغراق الأسواق بما لا ينفع، والتضييق على ما ينفع.

فالعولمة الحالية، التي غالبا ما تكون غير مقبولة في الأشكال التي تتخذها وعلامات الإخضاع التي تتوسل بها، تواصل فرض ميزان القوى الجائر، وتوهم بأن امتيازات رؤوسها، التي كسبتها على حساب الآخرين، دليل على احترام المعيار الكوني، فيما فشل الآخرين مردّه إلى عدم احترام ذلك المعيار.

فالغرب يفرض شروط الغيرية، ومواصفات الاختلاف. وفي الوضع الحالي، لم يعد الآخر سوى المختلف، ولكن الاختلاف ليس معادلا للغيرية، لأن الاختلاف هو مفهوم هووي كما يقول الفرنسي فرنسوا جوليان.

> **الآخر اليوم لم يعد سوى ذاك المختلف، ولكن الاختلاف ليس معادلا للغيرية، لأن الاختلاف هو مفهوم هووي**

في مقال بعنوان "بعضهم يتبع الآخرين"، تؤكد الباحثة الفرنسية كريستين ديلفي، أن كره "المختلف" ليس سمة طبيعية للنوع البشري، بل هو تقليد غربي، عبرت عنه الفلسفة، ووضعته كعنصر مؤسس وكوني للنفسية البشرية، وابتدعت مصطلح "الآخر"، والحال أن المجتمع هو الذي بنى هذا الآخر عن طريق ممارسات، منها الواقعي الملموس، ومنها الأيديولوجي الاستدلالي.

وفي رأيها أنها فلسفة مهيمنين تجري الحياة المادية لصالحهَم كما يهوون. وفي هذا التقليد الغربي الذي شكله ثم صاغه الفلاسفة، يبدو الآخر عند هيغل مثلا مسألة فلسفية، ويبدو لدى سارتر تهديدا إذ كتب يقول "إن كل وعي يريد قتل الآخر". فالآخر هو ما يحدده الغرب بوصفه ذاك، لكونه هو الذي يملك سلطة التمييز والتسمية والتصنيف والترتيب، وما تعرّف على الآخر إلا لاحتلال أرضه ونهب خيراته.

يقول جان بيير لوبران "إن الغيرية في خطر لأنها ببساطة لم تعد في مكانها الحق. صار الناس اليوم يخلطون بينها وبين الاختلاف، والحال أن الاختلاف لا يبلغ مقام الغيرية".

متى نكتب رواية الثورة

وارد بدر السالم
كاتب عراقي

إشكالية الكتابة في أزمان الحروب والثورات جدلية وقديمة. نوقشت كثيرا بين المختصين من النقاد والمنظّرين الأدبيين. وكانت الآراء بشكل عام تلخّص فكرة الزمن الإبداعي على أنه كفيل بإنضاج تجربة الكتابة عن أي حدث استثنائي في حياة الشعوب. وأن الكتابة الفورية لا تستوفي شروطها الفنية، وبالتالي تقترب من الوثائقية الفيلمية من دون أن يكون لها رصيد إبداعي، سوى أنها تؤرشف الحدث؛ أو جزءا منه؛ على نحو مباشر ولا تخرج قيمتها أكثر من هذا التوصيف.

وحتى مع التجارب العالمية التي تلهمنا معطياتها السردية بهذا الخصوص، سنجد فكرة الكتابة متأخرة عن زمنها وما كُتب في لحظتها لم يبقَ له صدى في نهاية الأمر. لكن قد يكون الشعر أكثر الأجناس الأدبية التصاقا بمثل هذه الأحداث الكبيرة، فهو شحنات لغوية وصور تتدفق وتتكثف لتصل إلى حدود خيالية في أغلب الأحوال ولا تصل إلى جوهر الحدث كما يفعل السرد.

ولدينا في العراق تجارب ماضية عمّا كُتب عن الحرب العراقية- الإيرانية في مجلدات كبيرة من قصص وأشعار وروايات، لكن لم يبقَ منه الكثير بسبب وثائقيته وتعبويته وانفعالات الكتابة الآنية التي كان الحدث أسرع وأكبر منها، لاسيما وأن الحدث هو الحرب الشاملة بكل معانيها، وما بقي من الكتابة عنها قليل جدا؛ وهو الذي لامس الشعور الإنساني الشخصي والعام بطريقة فنية كانت القصة القصيرة فيه أسرع استجابة من بقية الأجناس الأدبية، لكونها تمارس التقاط شحنات صغيرة من جبهات الحرب استطاعت إلى حد جيد أن تكون بنقاء إبداعي متميز. بينما بقيت الرواية عاجزة عن استثمار المساحة الزمنية الواسعة التي كانت فيها الحرب وما بعدها؛ وطاف الشعر في حلقات لغوية ووصفية لا أكثر بالرغم من حساسيته الخيالية واللغوية والصورية.

وفي حدث يجري بيننا الآن هو انتفاضة الشباب، أو ثورتهم، أو تظاهراتهم، أو احتجاجاتهم. وتحت أيّ تسمية تشير إلى هذا الحراك اليومي الذي أسقط الحكومة العراقية حتى الآن، ثمة فرص كبيرة لاقتناص الأفكار السردية، عندما خرجت هذه الجموع الشبابية ومن خلفها لوجستيات كاملة ومتكاملة ما يمكّننا نحن السرديين من أن نرى بشكل مباشر تداعيات الموقف المتحدي ومعطياته الفورية على المستويين الاجتماعي والسياسي، وبالتالي يمكن "خزن" الصور الكثيرة التي نعيشها ونراها مباشرة من مناطق الأزمة التي يصورها الشباب وتنتشر في السوشيال ميديا، من دون الوقوع في فخ الكتابة وشروطها الصعبة.

الوقائع التي تجري نحسبها خلفيات عريضة للكتابة، والمَشاهد المتسارعة هي اكتناز صوري متحرك لا يثبت على واقع حال بعينه. وهو المعين المقبل للكتابة السردية والقصصية بتحويل الصور والمَشاهد إلى فعل فني يتحرك سرديا لتثوير الحدث والإمضاء على الكثير من تفاصيله البيّنة والمستترة. حتى وإن مضت فترة ليست بالقليلة. ولنا في أراشيف السرديات الكبرى في العالم مثل هذا التأخير الزمني الموجب لاختمار التجربة وتبويبها فنيا، بدلا من الإسراع والتسرع في كتابة وقتية لا تصمد مع تطورات المعرفة الروائية بعموميتها. وكما قال صموئيل جونسون "ما يُكتب من دون جهد يُقرأ من دون متعة" والجهد هنا فكري وفني وجمالي خالص.

وفي هذا الإطار سنستوعب المقالات التي تُكتب؛ وهي مقالات تحليلية تشد من عزم المتظاهرين؛ والقصائد القصيرة التي تُنشر بانفعالياتها الوطنية المقبولة نسبيا، وخواطر التحريض المفهومة التي لها فعل هامشي غير مؤثر كثيرا؛ لكن سيكون من الصعب استيعاب صدور رواية تواكب هذه التظاهرات وتتحدث عنها وتستنطق شخصياتها؛ حتى وإن كانت من زاوية واحدة وتستقدم تداعيات مكثفة لتوفير مساحة خيالية ترافق الواقع الاحتجاجي وأسبابه؛ فالمفهوم الفني والخيالي واللغوي سيكون حاجزا وعاجزا أيضا عن الإحاطة بهذا الحدث الشاسع والمتوزع على أكثر من اتجاه. فيه من السياسة ما يختلط بالتطرف الديني والطائفي. وفيه من الفساد ما يكفي لكتابة أطنان من الكتب والوثائق. لهذا ستبدو الكتابة السريعة غير المتأنية ضربا من ضروب الاستجابة الانفعالية غير الدقيقة لظرف وطني معقد ومأهول بعلامات الاستفهام وملفات الفساد الكبرى والشكوك السياسية التي أوصلت البلاد إلى أنفاق مظلمة.

> **التأخير الزمني ضروري لاختمار التجربة وتبويبها فنيا بدلا من الإسراع والتسرع في كتابة وقتية لا تصمد مع التطورات**

فرضية الكتابة السردية عملية مضنية بلا شك. فمن تحويل الواقعة إلى هيكل جمالي بتقنية متقدمة يتطلب مشروعا سرديا ناضجا ومُحترَفا (صناعيا) وتخطيطا مسبقا، يستقدم المعارف التي تعزز الواقعة وتاريخيتها، كما يستقدم اللغة بوصفها معالِجا خياليا قادرا على هضم الإحداثيات السردية وزوايا الرصد الكثيرة لها، ومن ثم تهيئة المناخ الروائي وتقديمه إلى القارئ بكونه نصا متاحا للقراءة. بعد أن تكون مثل هذه العملية محكومة بزمنية مفتوحة لا علاقة لها بأصل الحدث وتوابعه الفرعية، سوى أنه "مادة" خام يتنوع عليها السرد وتتنوع عليها أساليب الكتابة.

الانتفاضة العراقية هيأت أجواء الكتابة مبكرا على ما يبدو، نظرا إلى قوتها الشبابية وإسقاطها للكثير من الأقنعة السياسية، وتفاعل المجتمع معها بأطيافه الدينية والمذهبية والقومية، مثلما أسقطت الهاجس الطائفي كليا وتخطت فوبيا الخوف الديني الطائفي وبدأت تنظر إليه على أنه السبب الأساسي في مشكلات البلاد والعباد، وهذا ما شجّع الكتابة الآنية سرديا، لكن تبقى معايير الكتابة الفنية والجمالية هي الحاسمة في تقبّل هذه المحاولات الروائية. مع سؤال أساسي: متى نكتب رواية الثورة؟

سردية تحتاج وقتا لتكتب (لوحة للفنان تحسين الزيدي)